مقدمة

نحتاج في حياتنا العلمية والعملية إلى معرفة الكثير عن تعقيدات الحياة السياسية وتشابكاتها، وحركياتها، وتبدلاتها، وخصائصها. ذلك أننا نحتاج إلى معرفة الطريقة التي يتصرف بها أولئك الأفراد الذين يحتلون مواقع التأثير، ولماذا يتصرفون كذلك؟

ونحتاج إلى معرفة العناصر التي تجعل جماعة، أو تنظيمًا، أو حزبًا ما يبرز، وينمو، ويزدهر، ثم ينهار أو يضعف. ونحتاج إلى معرفة لماذا تتميز أنظمة بقدر كبير من الاستقرار وتتميز أخرى بقلته أو بكثرة الاضطرابات؟

كما نحتاج إلى معرفة لماذا يقبل الشعب على المشاركة السياسية في مرحلة من المراحل، ولماذا يحجم في مراحل وظروف أخرى؟ إن هذه التساؤلات وغيرها، تحتاج إلى وسائط تسهم في إزالة تعقيداتها أو على الأقل تزرع قليلاً من الضوء في نفقها المظلم، هذه الوسائط هي مجموعة من المناهج والاقترابات والمفاهيم والأدوات التي تتضافر فيما بينها وتقدم للباحث أو الطالب أو المحلل السياسي دليلاً إرشاديًا يتبعه لإدراك الظواهر السياسية المختلفة، والتعامل معها، وسبر أغوارها. إنها مجموعة من المسالك تتيحها هذه المناهج والاقترابات، للوصول إلى الحقائق أو إزالة اللبس والغموض عن الكثير من العمليات السياسية وتفاعلاتها.

هذه المناهج والاقترابات تمكننا من تعريف المشكلات محل دراستنا تعريفًا جيدًا، وذلك من خلال تحديد المفاهيم بدقة ووضوح دفعًا للإبهام، وإرساء لأسس علمية ضرورية لخطوات لاحقة، كما تمكننا من الحصول على البيانات وتوليدها من مظانها عبر الوسائل والأساليب المسخرة لذلك. وكل ذلك من أجل بثّ المزيد من النور في محيط الظاهرة التي نسعى إلى تحليلها وتفكيكها، ومن ثم تفسيرها تبعًا لقواعد «علمية». وتمثل هذه الوسائط، أدوات وتصورات ورموزاً تمتلك قدرات الإدراك الذاتي للواقع الذي صممت من أجل تحليله وتفسيره، وهي بذلك تقوم بتقديم هذا الواقع الذي تدركه أو تدرك بعض جوانبه إلى الجهة التي تستخدمها وتتوقف صحة ذلك الإدراك وقدرة تلك الوسيلة على صدقها، وواقعيتها، وابتعادها عن التحيز والتمركز حول الذات. إنها تمثل رسول الباحث إلى الظواهر، ومن ثم، فإن صدق المعلومات التي يقدمها الرسول إلى المرسل تتوقف على اختيار هذا الأخير للرسول،

وما ينبغي أن يتوفر فيه من صدق وأمانة وفطنة، كذلك المنهج يقدم لنا من الحقائق ما يدرك هو وما يتضمنه هيكله من مكونات قد تعكس الواقع أو لا تعكسه. لذلك ينبغي الحذر عند التعامل مع هذه الوسائط، حيث إنها تتأثر بقيم أصحابها وبيئاتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية، والسياقات التاريخية التي ولدت فيها. لذلك ينبغي أخذ كل ذلك في اعتبار الطالب أو المحلل أو الباحث. فلا نعجب إذا أدركنا قدرتها على التحليل والتفسير لظواهر في بلدان وعجزها في بلدان أخرى. وهذا لا يستدعي بالضرورة انحياز المنهج، وإن أمكن ذلك في الكثير من المناهج، وإنما يرجع بالدرجة الأولى إلى اختلاف بيئات ولادة تلك المناهج والواقع الذي تتناوله، وعناصر تكوينها ومدى استيعابها لمتغيرات جديدة، إلاّ أن ذلك كله لا يمنع الإفادة من تلك الوسائط التي تتميز بانفتاحها ومرونتها لاستيعاب متغيرات جديدة، ويتوقف استخدام تلك الوسائط على قدرة الباحث والمحلل على إعادة صياغتها بما يناسب خصوصية مجتمعه.

ولقد حرصت على أن أقدم هذه الاقترابات والمناهج الغربية المصدر دون تلفيق، وعرّفت بولادتها وتصوراتها دون تحيز. وقسمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول: تناولت في الفصل الأول، المفاهيم، وفي الفصل الثاني خطوات البحث، وفي الفصل الثالث المناهج، وفي الرابع الاقترابات، وفي الخامس الأساليب والأدوات.

وفي الختام أقدم شكري وامتناني إلى الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل والدكتور باهر عتلم اللذين فتحا لي مكتبة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، كما أقدم شكري إلى الأساتذة: الدكتور عبد الفتاح إسماعيل والدكتور نصر عارف والدكتور أحمد ثابت على فوائدهم العلمية، وأشكر كل من ساعد على إخراج هذا الكتاب على ما هو عليه.

وأسأل الله العلي القدير أن يجعل عملي هذا في ميزان حسناتي وأن يتجاوز عن سيئاتي إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمد شلبي

القاهرة في ١٩ يوليو ١٩٩٦م.

الموافق الجمعة ٤ ربيع الأول ١٤١٦هـ